طه حسين

أسرة طيبة، تحيا حياة الريف الصميم، فى قرية من القرى الصميمة، بين ذُرِّيَّتها طفل كسائر الأطفال، يظل إلى السنة الرابعة من عمره يتنفس فى جوّ الريف، ويعيش فى منزل زاخر بأهله، فى رعاية أب هو العائل السيِّد.

ولم تكن حياة هذا الطفل مَظِنَّة لتعقيد، فماضيها وحاضرها ومستقبلها واضح لا يحتاج إلى كبير تفكير . . .

خطة فى الحياة مقررة، ومنهج فى الدراسة مرسوم.

ليس عليه إلا أن يسير فى طريقه كأسلافه، وكمن يعاصرونه وكمن يلونه . . .

فقيه يتولى تحفيظ الطفل آى القرآن، ويُرسِّخُ فى أعماق قلبه جذور الإيمان.

إنه طفـــل كبقية الأطفال، وإن كان متميزاً بتوقد ذكاء، ورهافة حس، ولطف شعور . . .

obeikandi.com

ولكن لن يكون لهذا التميز أثر فى حياة الطفل ، وفى نظام عيشه الراتب المقرر الذى ينتظره فى مستأنف العمر .

أقصى الأمانى فى نفسه وفى أنفس أهله وذويه أن يكون من متقدمى الطلاب فى الأزهر المعمور ، فيؤهله ذلك لأن يكون شيخاً ناهماً من أئمة الدين وفقهاء الفتوى وعلماء الأحكام ، يخب فى جبته الفضفاضة ، وتتوج رأسه عمامة كبيرة تكفل له أبهة ومهابة ، فإذا الناس يلثمون يده أفواجاً يستمدون منها طيب البركات .

ولكن حدث أمر ذو بال ، كارثة من كوارث الدهر ، وضربة من ضربات القدر ، التى يصيب بها الناس ، دون أن يدركوا لها كنهاً . . .

فقد الصبى بصره ، فكان فى هذا الحدث فصلُ الخطاب فى الغيب المستور .

إنه حدث ليس بالجديد ولا بالغريب ، فلطالما أصاب كثيراً من الناس ، دون أن يغير من مجرى حياتهم أى تغيير . . .

وقد كان فى حسبان الأسرة أنه لم يغير من نفسية الصبى شيئاً ، ولن يكون له فى مجرى حياته أثر . . .

أكان العلم وقفاً على ذوى الأبصار ؟

أو ليس «الأزهر» يضم فى رحابه جملة من نوابغ المكفوفين ، لم

يحُول فَقْدُ البصر بينهم وبين ما يشتهون من جاه العلم ومَنْصِب الدين ؟

إذن فليمض الصبيّ في طريقه .

خطة في الحياة مقررة ، ومنهج في الدراسة مرسوم ...

ولكن :

تقفون والفلك المحرك دائر   وتقدرون فتضحك الأقدار

أقبل الصبيّ على حياته ، وانطلق قُدُماً يوطد العزم على أن يبلغ الغاية المقررة ، ويستوفي المنهج المرسوم ..

هكذا قرر بعقله ومنطقه ، بيد أن قوة أخرى كانت تعمل في الخفاء ، تعمل جاهدة مختزنة وَقُودها لميقات يومٍ معلوم ، تعمل دون أن يدرى الصبيّ من أمرها أىّ شيء ...

كان عقله السافر يقول :

ليس لنا في الحياة إلا الاستسلام . سلبني القدر شيئاً عزيزاً ، ولكن بماذا يستطيع مخلوق مسيَّر أن يجابه القدر ، وأن يعاند مشيئته ؟

إلا أن عقله الباطن كان لا يأبه لهذه الفلسفة القائمة على أصول منطقية مستقرة ، فجعل يضطرب ويضطرم ، متنكراً لتلك الأقدار ، محاولاً أن يطلق جامح ثورته للتغلب والانتصار ..

ولم يكن لهذا العقل الباطن تدبير معيّن ، فقصارى جهده أن

ينطلق ، وأن يرفع عنه الوقر الذى يثقله ، وإنه ليعدّ عدّته ويتخذ أهبته ، ويترصد للفرصة السانحة فيما يستقبل من الأيام . .

وعلى الرغم مما كان يلقاه الصبي من حَدَب وعطف ورعاية ، لم يكن بالفتى الضّحوك ، طلق المحيا ، مرح النفس . . .

أكان يضيق بهذا الحدب والعطف والرعاية ، إذ يرى في تلك الملامح مثاراً لشجونه ، ويعدّها علائم مواساة وإشفاق ؟ !

احتبس الصبيّ فى داره ، بل فى زاوية قصيّة من هذه الدار ، يقضى الساعات ساهم النفس ، مهموم الفؤاد . . . فلم تكن حياة الدار بما يختلج فيها من ضجة وصخب تبعث فيه أى إقبال ، فاستقل فى مملكته الصغيرة التى صوّرها فى خياله ، وسوّرها لنفسه ، لتكون له معقلاً يكفل له صفاء التفكير والمناجاة . . .

ساعات وَحْدة طوال ، لا يعمرها إلا التأمل العميق . . .

فكان ذلك وَقُوداً حامياً يذكى ذكاءه ، ويشق لخياله رحائب الأفق . فتوهّجت قريحته ، وصفا ذهنه ، وتسامت مخيّلته . . .

كان نضج عقله يسبق نضج جسمه ، فتجلت مخايل رجولته ، وهو فى طور اليفاعة ، فتىّ السنّ .

وآن للصبّى أن يدخل « الأزهر » مُجاوِراً . . .

واستقبل بواكير الشباب ، فانقاد بادىء بدء للنظم السائدة ،

ولكن هذه النظم فى الدرس والتلقين لم ترق فتًى كانت الثورة تتخلق بين جنبيه ، ويوشك شررها أن يتطاير …

إن سَدَنَةَ «الأزهر» يومئذ كانوا يريدون الطالب برميلاً خاليا يملأونه بما تيسّر من زاد متحجّر متوارث، حتى إذا امتلأ أحكموا سدّه، ثم ألقوا البرميل يتدحرج على مَدْرَجة الطريق ، قائلين له : فلتذهبْ على بركة الله !

إلا أن طالبنا الثائر لم يكن يرضى لنفسه أن يكون ذلك البرْميلَ المنشود . . .

فهو يرى فى بُرْدته إنسانا ، وهبه الله عقلا حيا يجادل به ويناقش ، لا يقبل قضية دون تمحيص واستكناه .

ومن ثّم راح يسأل ، ويلحّ فى السؤال ، ويَرُوع مسئوليه بما لا عهد لهم به من جُرْأة وتمرد على المألوف …

فضاق به السَّدَنَةُ المحافظون ، ولكنه ما برح يَجْأر بسؤاله ، حتى أيقظ من حوله طائفة من رفقائه ، تجمّعوا إليه ، واشتركوا معه ، يسألون ويتمردون .

وما لبث طالبنا الثائر أن أصبح زعيم المتسخّطين الذين يريدهم «الأزهر» على أن يكونوا براميل تتدحرج على مدرجة الطريق .

وكان بديها أن تنتهى المعركة بخروج الطالب الثائر ، يلتمس الهواء فى أفق جديد !

بدأ الفتى حقبة من حياته ، حقبة حرية وانطلاق . . . بيد أنه أحس كأنما قد ألقى بنفسه فى بيداء شاسعة الأكناف ، تعصف فيها هوجُ الرياح ، لا يدرى ماذا يكون مصيره فى معركتها الدائرة ، فأذكى من عزيمته ، وألهب من همته ، وخاض الغمار فى حمية وحماس .

فى تلك الفترة كان هناك رجل يعمل فى ميدان حر ، لإنشاء جيل جديد ، وبث روح أخرى غير الروح السائدة فى ذلك العصر .

كان ذلك الرجل هو « لطفى السيد » ، وكان ميدانه صفحات « الجريدة » ودارها . . .

فصادف ذلك الميدان هوى فى فؤاد طالبنا الثائر ، وما هى إلا أن اندفع صوبه ، فكان فيه طليعة الفتيان !

وعرف طريقه إلى « الجامعة » الناشئة ، إلى ذلك المنهل الصافى يستكمل فيه ريّه من علم وعرفان . .

وكانت حقا مرحلة انتقال جليلة الشأن فى حياة الفتى الثائر . .

لقد أقبل يتلقى علوم العصر ومعارفه ، على مناهج مستحدثة ، وأساليب لا عهد بها لمعهده القديم . . . فتجلت نشطته ، وتفتقت موهبته ، وأحس بالظمأ المتجدد إلى طلب المزيد مما بين يديه من بحث ودرس .

فضاقت « الجامعة » الناشئة عن تطلعه وطموحه . . .

ولم تعد « مصر » تغنيه عما يريد . . .

فإلى كعبة العلم فى « فرنسا » .

إلى « جامعة باريس » !

هنالك آفاق فساح من حرية التفكير ، وكنوز لا تنفد من المعارف والعلوم ، وأمواج دفاقة من البحث والتحقيق والتنوير .

فانبرى الشاب الطموح يعُبُّ ويتزود .

وكان ذلك مرحلة انتقال أخرى فى التوجيه ، وخطوة واسعة فى سبيل التكمل ..

وإلى هذه الحقبة ، يمكن القول بأن الحظ لم يُخالِفْ ذلك الشاب الموهوب ، على الرغم مما حاق به من ملابسات .

ولكن هذا الحظ يواتيه متألقا سخيًّا ، إذ يهيء له اليومَ صاحبة كريمة ، ليست فرنسية بمولدها ونشأتها وحسب ، ولكنها فرنسية مثالية بثقافتها وفكرها ، مثالية بإدراكها لمهمة الشريك فى حياةٍ طلاعةٍ نزّاعةٍ إلى بطولة التجديد والبناء !

ومن ثم كَمَلَتْ للشاب أدواته ، واستقرت به الحال ، وتوضّح له سبيله فى مستقبل العيش .

فآب إلى وطنه، يزاول العمل، ويواصل الجهاد . . .

واضطلع بمهمته التى ادخر لها نشاطه ، وجنّد مواهبه ، مهمةِ النداء بثورة فى الميدان الأدبى ، والتبشير بمناهج حديثة فى البحث

والدرس ، والعمل على رسم أسس جديدة يشاد عليها « مستقبل الثقافة فى مصر » . . .

أستاذ فى « الجامعة » يذكى فى نفوس الطلاب شعلة التفكير ، وهو حيناً يلقى ضوءاً على جوانب من الأدب العربى ، وحيناً يشرع نهجاً للنقد الأدبى ، وحيناً يدنى إلى قراء العربية زاداً من ثقافة « يونان » ، وحيناً يجلى لهم طرائف من نماذج الأدب الفرنسى ، وحيناً يسرد قصته فى « أيامه » فإذا به يطرف العربية بفن أخاذ من القصص الرفيع لايجاريه فى روعته قلم . وهو إلى ذلك وغير ذلك كله روح سارية وثابة نفاذة الأثر فى البيئة العلمية والأدبية ، تدفع الأساتذة والطلاب ، وتوجه القادة ومن بيدهم زمام الأمور إلى دعم الثقافة وتوسيع آفاقها وإصلاح خططها ، لتساير ركب الأمم فى طريق التحضر .

« طه حسين » مزاج قوى بين حضارتين متغايرتين : حضارة الشرق وحضارة الغرب ، وعصارة طيبة من معهدين مختلفين : « الأزهر » و « جامعة باريس » . . .

وإن أصوله مابرحت راسخة فى حضارة « الأزهر » تستخلص منها عناصر غذاء لاغناء عنها ، ولكن فروعه تسامقت فينانة فى حضارة الغرب وثقافته ، تتنسم منها الهواء ، وتستمد النور .

وربما تبدو أول وهلة غرابة" الجمع بين معهدين وحضارتين اختلفا كل اختلاف ، ولكن المتمعّن المدقق يرى أن ليس الجمع بينهما بالمتعذّر العسير ، فليسا هما على طرفى نقيض . . .

إنهما يرجعان إلى نبع واحد ، هو نبع المعرفة الإنسانية فى أصولها الأولى ، والخلاف بينهما هو أن كلا منهما يتميّز بما ليس فى الآخر . . .

هما عنصران أساسيان لشخصية الشرقىّ الذى يريد أن يصطحب أمجاده التليدة وميراثه العظيم ، دون أن يعوقه ذلك عن مسايرة الركب الإنسانىّ فى طريقه إلى الأمام . . .

وإذا كان « طه حسين » قد جمع فى شخصه بين « الشيخ » و « الدكتور » ، فقصارى ما فعل أنه لاءم بين نشاطين من ضروب النشاط الذهنىّ للإنسان ، وكان بهذه الملاءمة نموذجاً مثالياً للأديب الشرقى المعاصر .

وحسبنا — لكى تتجلّى مزية هذه الملاءمة — أن نتمثل « طه » أزهريا استأثرت به أزهريته ، أو جامعيا لم يكن له من الثقافة العربية فى غمارها الملتطم نصيب . فإن الأزهرىّ أو الجامعى وحده قد يكون له أثره وخطره ، ولكنه لن يكون تلك الشخصية المثالية المكتملة التى نسمّيها : « طه حسين »

ولعل واسطة العقد فى شخصية أديبنا ، هى أسلوبه . . .

ذلك الأسلوب الذى تفرّد به صاحبه ، وعزّ على من استهواهم أن يحاكوه ...

ولستُ الآن بصدد العرض لمزايا هذا الأسلوب وخصائصه ، فحسبي أن أشير إلى أنه أسلوب طريف ، راع الناس بجدّته ومنحاه فى التعبير والتأثير ، ولا أدلّ على ذلك من قيام الجدل حوله بين الأشياع والنقاد ...

وما كان لأسلوب جديد مبتكر ألاّ يقوم حوله جدل ونقاش !

ولكن الذى لا جدال فيه أننا حين نُشيد باللغة العربية ، وقد زهت فى هذا العصر ، يطالعنا فيما يطالعنا على الفور :

أسلوب « طه حسين »

فلا مِرية أن البيان العربيّ قد بلغ الآن من الازدهار مبلغا عظيما لا يقل عما بلغه فى أزهى العصور السوالف ، ولا مرية كذلك فى أن نعدّ أسلوب « طه حسين » مظهرا رائعا من مظاهر ذلك الازدهار .

الدكتور هيكل

لقيتُ « الدكتور هيكل » أولَ ما لقيتُه في « رأس البر » قبل ثلاثين سنة ونيّف .

وإني لا أفتأ أذكر هذه اللقية معتزاً بذكراها أيّ اعتزاز ، فهي ذكرى رؤيتي — وأنا في مطلع الشباب — لرجل كنا نتسامع به ، ونقرأ له ، ونترقب آراءه الوثّابة الجريئة دون تعارف وصحبة .

كان « الدكتور هيـــكل » مدار حديثنا نحن الشبان ، ومَثار جدالنا في مجالسنا الصاخبة ، وقد فتنتنا منه توجيهات جديدة في النقد والأدب والحياة ، توجيهات مقتبسة من مشاعل الحضارة الحديثة في « أوربة » ، يرجع فضل اقتباسها إليه وإلى رفقائه من ذلك الرعيل الأول الذي عاد إلى الوطن يهتف بالشباب أن يحمل لواء التجديد ، وأن ينتقض على عبادة الأصنام ...

أذكر أنا هذه اللقاة الأولى ، وأجمعُ ظني أن « الدكتور هيكل » لا يذكرها ، فقد كان في الحلقة التي ضمت نخبة من كبراء الرجال في

شرفة فندق « كورتيل » فى ذلك التصييف الطريف . ولم أكن فى هذه الحلقة إلا سامعاً لا يعدو طوْرَه ، ولا ريب أنى كنت أشد إصغاء « للدكتور هيكل » منى إلى غيره ، وكذلك كنت أكثر شغفاً به ، وإقبالا عليه ، على ذلك الرجل الذى زفّ إلى الأدب العربى باكورة القصص المصرى . . .

وما قصة « زينب » بيسيرٍ !

نحن الناشئة الذين كانوا يتطلعون يومئذ إلى لون من الكتابة يصف الحياة المصرية ، ويترجم عن نفسيتها ، لم نكد نلقفُ قصة « زينب » حتى نصبناها قِبْلة نحوطها بالتجلة والإكبار ، ونستهديها سَنَن الطريق ، فلا غرو أن يكون صاحب « زينب » مهوى الأفئدة ، ومطمح الأنظار .

راعنى أول وهلة من حديثه لهجة رصينة تقْصِد فى القول ، وتتجلى فيها حيوية الفكر . وما كان فى هذه الفترة الباكرة من عمره ممن يهيمنون على المجالس ، ويديرون دفة الحديث ، بل لقد كان يبدو ضنيناً بمنطقه ، لا يناقلُ الكلام إلا بقدر ، ولا يعدو داعية الضرورة ، فإذا تكلم سدَّد وأغنَى .

وقد انصرفتُ من مجلسى هذا ، وأنا أعتقد أن الرجل حييٌّ تكسوه صبغة الخجل ، ومما أكد لى ذلك المعتقَد أنه كان كثيراً

ما يعتزل مجالس الفندق ، مُؤْثراً أن يعكُف على المطالعة .

وعجبتُ لهذا الرجل الخجول الصموت الركين : كيف يحول قلمه تلك الجولات التى تنقدح نارها فتبعث الثورة فى النفوس ، حتى إن رعاة القديم كانوا يعدّونه أمضى دعاة الجديد سلاحاً ، وأعنفهم لساناً ؛ وحتى إنه ليبلغ فى الجرأة والاقتحام ما لا يبلغ سواه ، فيرى فى الإصلاح الاجتماعى وفى نهضة الأدب وفى أسباب الحياة آراء عارمة ، ويعبر عن نزعات هدامة ، ويشدو فى بيانه منحى لا يتقيد فيه بموروث الأساليب ، إمعاناً فى التحرر ، وإبعاداً فى إظهار الشخصية ، وجِدّاً فى الهرب من المحاكاة والتقليد . .

لعمرك ما كان خجلا ولا حياء ما توهمتُه أنا كذلك حين رأيته فى مجلس الفندق ، وإنما كان عفافةً عن اللغو ، وكراهة للثرثرة ، وصوناً للنفس عن سوانح الأحاديث . ومن ثمّ نأى بجانبه يخلو إلى صحائف الكتب مغترفاً من مناهل العقول .

* * *

استهلّ « الدكتور هيكل » نشاطه محامياً ، ولعله ضاق ذرعا بتلك المحاماة الفردية التى تطالب بالحقوق الشخصية ، وتعالج ما بين الناس من خصومة ونزاع ؛ فسمَتْ همته إلى المحاماة العامة التى تضطلع بالقضايا الاجتماعية الشاملة ، فتنشد حقوق الشعب أجمع ،

ولذلك انطلق فى هذا الميدان الرحيب ، فظلت شخصية المصلح الاجتماعى هى الشخصية التى تطبع نشاط « الدكتور هيكل » منذ بزوغه حتى الساعة . وإن هذه الشخصية لتلازمه فى مراحل حياته وجوانب عمله ، يأنسها الناس فيه أديباً ومفكراً وسياسياً وزعيم حزب ورجل دولة . . .

شعلة متقدة من النداء بالإصلاح ، ورغبة قوية فى التحضر والنهوض ، لاتدع وسيلة من الوسائل إلا ابتغتها لتحقيق الغاية وبلوغ الهدف .

لايكاد يسترده وطنه بعد رحلته فى سبيل العـــلم الجديد ، وارتوائه من الأدب الأجنبى ، حتى يتلفت حوله ، ليرى : أين اللون القصصى فى أدبنا العربى ؟

فلا يجد إلا تلك القوالب الجامدة التى علاها الصدأ ، وأخلقها الزمن ، فينبعث مقدماً ذلك المثال الطريف من القصة العصرية ، كأنه يقول : إليكم جهدَ الابتكار ، وثمرة الابتداع . فليكن شقاً للطريق ، وبذرة للفــنّ المنشود .

ويَرُوعه مايرى من تخلف البلاد فى المجالات الحيوية من تعليم واقتصاد ، فيُشْـرِع قلمه معلياً كلمة الإصلاح ، داعياً إلى الأخذ بأسباب القوة والعزة ، ولكن بصيرته النيّرة تهديه إلى أنه لاسبيل

إلى نهضةٍ ما كانت الأمة راسفةً في أصفاد التبعيّة والاستعمار ، وأن أمة لا تلي أمرها بنفسها ولا تملك قيادها : عزيز عليها أن تستكمل وسائل التقدم والارتقاء .

وإذن يجب أن يُعالج الداء في مكمنه ، وأن تُجتث العلة من جذورها ، فهيهات أن يتحقق للبلاد نهوض وتجديد إلا إن تغير نظام الحكم ، وألقيت مقاليد الأمور إلى أهل البلاد .

فحق على المصلح أولا أن يقتحم ميدان السياسة ، ويجاهد ابتغاء الحرية ، ويدعو إلى تحطيم الأغلال ، وكسب الاستقلال .

وكذلك ألفينا « الدكتور هيكل » كاتبا وطنيا يسدّد قلمه في المعترك السياسيّ ، وما أسرع أن تجلت شخصيته في الميدان ، وصادفت مواهبه تربة خصبة تنمو فيها وتترعرع ، فما كاد يقوم « حزب الأحرار الدستوريين » حتى رأينا الحزب يصطفي « الدكتور هيكل » لسانا ينطق باسمه ، ويعبر عن منازعه في صحيفته السيارة : « السياسة اليومية » .

وكان الوقت عصيبا ، تغلي فيه العواطف الوطنية ، وتُفضي بالزعماء إلى الفرقة والشقاق ، وتؤجج بينهم دواعي التنافس والنزاع . فكان اختيار « الأحرار » له في هذا الموقف الدقيق برهان ثقتهم به ، وتقديرهم لكفايته ، وتعويلهم على نصرته . وإنها لمهمة ثقيلة

ألقيتْ على كاهله ، بيد أنه لم يَخشَ بها ، فسار بجريدة « السياسة » على نهج صحفي غير مسبوق ، ورسم للصحافة اليومية في « مصر » مثالا يضارع الأمثلة الكريمة للصحف السيارة في العصر الحديث .

وفي هذا المنبر اليوميّ سنحتْ « للدكتور هيكل » فرص الإفضاء بما تنطوي عليه جوانحه من رسالات البحث في شتى جوانب المجتمع المصري ، فطالعتنا « السياسة » أول مرة بصحائف أسبوعية منوّعة موقوفة على الدرس والبحث في العلوم والآداب والفنون ، وانفسح صدر « السياسة » لحملة الأقلام من زعماء الفكر يجولون ما طاب لهم أن يجولوا في حرية وانطلاق .

* * *

وما انقضتْ أعوام معدودة حتى أحسّ « الدكتور هيكل » أن رسالة البحث الأدبي والاجتماعي يضيق عنها النطاق المحدود من الصحيفة اليومية ، وأن كثيرا من الأقلام يتطلب مجالا أكثر سعة . فأنشأ « السياسة الأسبوعية » للوفاء بهذا الغرض ، ولعله بذلك الصنيع قد شفى نفسه وأرضى ضميره ؛ إذ أفرد للعلم والأدب مثابة لا تشوبها شوائب الحزبية السياسية من تشاحن وعراك ، فهفا إليها كل قارىء مهما يكن مُتَّجَهه السياسي ولونه الحزبيّ .

تلاقت في جنبات « السياسة الأسبوعية » قرائح الصفوة من

أعيان الأدباء والكتاب والمفكرين وأصحاب الفنون ، فكانت مجمعا ثقافيا يموج بالدراسات والمباحث ، ويجلو روائع تمثل طابع الفكر الجديد . . .

وإن المخضرمين من الأدباء ليذكرون أن صحيفة « السفور » تجلت فيها طلائع النزعات الحديثة في الأدب والفن ، وعلى أنقاض هذه الصحيفة علا صرح « السياسة الأسبوعية » ، فرأينا كتّاب « السفور » الذين لمعت أسماؤهم فيها يعاودون نشاطهم من هذا المنبر العتيد . . .

لم تكن « السياسة الأسبوعية » لهوا صحفيا ولا عبثا ، وما كانت معرضا أنيقا لتزجية الوقت وتنعيم النظر ، وإنما خرجت بمباحثها ودراساتها كأنما هي جامعة ضمت مختلف الكليات ، فيها لكل طالب زاد . ولعلها كانت وليدة الضرورات والملابسات الاجتماعية في تلك الحقبة من الزمن ، إذ كانت الجامعة الحكومية لما تزل في مهدها ، طلابها نفر قليل ، على حين يتطلع شباب العصر إلى المعرفة والتأدب ، فكان على « السياسة الأسبوعية » أن تروى ظمأ الجمهور الراغب في التثقيف والتنوير .

ضرب « الدكتور هيكل » في غمار الحياة السياسية ، فعجمت عوده ، وأورثته تجربة وحنكة ، وبصّرته بالحياة الاجتماعية

ومالها من حقائق ودقائق . فلم يظل ذلك الشاب الثّّرى " العود ، العائد من عواصم الحضارة ، الثائر على التقاليد وأوضاع المجتمع .

وأحسسنا بوادر ذلك التطلع فيما يجود به قلمه من آراء وتوجيهات عليها لوامح من الاتزان والاتئاد ، تتجافى رويدا عن تلك الهبّات الثورية والفورات الجوامح فى الدعوة إلى الهدم والانتقاض . ومن ثم اكتسبت رسالته الإصلاحية مرونة وطواعية ، واتخذت لونا من اللباقة والمسالمة .

وإذا كان « الدكتور هيكل » قد وَخطه المشيب فى غير إبّانه » فلعل ذلك مردّه إلى تلك الجلسة المفروضة المحتومة يجلسها وراء مكتبه كل يوم يدبج المقالة الرئيسة التى لا بد أن يطالعها الناس فى « السياسة » مع الصباح .

وما أشبه « الدكتور هيكل » فى ذلك « بعبد الملك بن مَرْوان » إذ سئل :

لم أسرع إليك المشيب ؟

فأجاب :

كيف تنكرون علىّ أن أشيب ، وأنا أعرض على الناس عقلى مرة كل أسبوع ، فى خطبة الجمعة ؟

فما ظنك بمن يعرض عقله على الجمهور الأكبر كل يوم ؟

وما ظنك به يعرضه مسجّلا ، مأخوذا بما كتَب ، مسئولا عما أبدى ؟

* * *

لم يكن مقال « الدكتور هيكل » إلقاء للكلام على عواهنه ، أو تصيّدا للموضوع كما اتفق ، وإنما كان تعبيرا عن رأى ، أو تأييدا لموقف ، أو مهاجمة لخصم . وهو فى كل ذلك وليد تفكير سليم ، ودراسة للموضوع وثيقة الصلة بالحالة الحاضرة ، وإحاطة شاملة بمختلف العوامل والملابسات . وإنه إذ يكتب مقالة ليحسّ من حوله العيون والأرصاد ترقب ما يلفظ من قول ، وتتأهب لحسابه أعسر حساب .

* * *

على أن « الدكتور هيكل » لم تصرفه تلك الفريضة الموصولة من المقالة السياسية الرئيسة عن ولعه المكين بالأدب ، ونزعته الأصيلة إلى حياة الفكر . فكان يضَنّ بوقت فراغه لا يبذله فى لهو أو دعة ، وإنما يَغمُره بتلك الفصول البارعة فى الموضوعات الأدبية على اختلاف مناحيها ، فاجتمع له من ذلك الثمر مؤلفاته الموسومة : « فى أوقات الفراغ » و « تراجم مصرية وغربية » و « جان جاك روسو » و « ولدى » و « عشرة أيام فى السودان » و « ثورة الأدب » .

obeikandl.com

وعلى جميع هذه الكتب يغلب طابع واحد ، ومرمى متميز هو الجانب الاجتماعى . فهو يسجل « فى أوقات الفراغ » أصداء خواطره فى الحياة ، وهو فى « ولدى » يخط فلسفة عميقة مناطها جوهر النفس وحقيقة الوجود . ولا يترك زورة « السودان » دون أن يقيد فيها تلك الملاحظات البصيرة للحياة الاجتماعية هنالك .

ولعل كتابيه « التراجم » و « جان جاك روسو » يكشفان لنا بواكير نزوعه وتطلعه إلى دراسة الشخصيات التاريخية الحافلة بعظائم الأمجاد .

فلما نمت تلك النزعة أثمرت فيما بعد أسفاره القيمة فى سيرة رجالات الإسلام . وما عنايته بأولئك الأبطال إلا إبراز لهدفه الأكبر فى الإصلاح الاجتماعى ، فإن الكشف عن جوانب هذه الشخصيات ومناهجها فى بناء الأمة وممارسة الحياة جدير أن يهدى الناس ، فيبصرهم بأسباب القوة والعزة ، ويجنبهم عوامل الضعة والاضمحلال .

* * *

بينما كان « الدكتور هيكل » يتسنم مكانه من « السياسة » جازت البلاد بعهد الانقلاب الدستورى ، فشاعت فى المجتمع المصرى صنوف الضغط والاضطهاد ، فطوحت فيما طوحت بجريدة

« السياسة » . وكان نصيب « الدكتور هيـــكل » من فوائد هذه المصائب أن انزاحت عنه ضريبة المقالة الرئيسة فى الصحيفة اليومية ، واستقرّ فى بيته يعبّ من مطالعاته ، فكان فيما قرأه آنئذ كتاب « درمنغم » فى « حياة محمد » ، وما عتم أن استهواه ذلك التأليف ، فشرع يعرّف به ، ويعلق عليه فيما بقى له من الحُطَام الصحفى ، أعنى « السياسة الأسبوعية » . . .

وألفى « الدكتور هيكل » نفسه منساقاً إلى دراسة النبىّ ، كأنما عزّ عليه أن يسبق كاتب أجنبىّ إلى ذلك النمط الحديث من دراسة التاريخ الإسلامىّ ، كاتب أجنبى تعوزه أصالة المراجع ، وقرب المستَقَى ، وتواصل الأنساب والمشاعر ، فنهض هو يؤلف كتابه « حياة محمد » الذى يعدّ فتحاً جديداً فى التراجم العربية . ولا غرو أن يطير لهذا الكتاب صيت ، وأن يكون لذلك أثره فى أنفس الكتاب العرب ، فإذا هم يسترسلون فى تناول التاريخ الإسلامىّ ممثلا فى حياة أبطاله ، ويتفننون فى التأليف على أنماط مستحدثة لم تكن تمسها الأقلام ، فَعَمرت المكتبة العربية بنخبة طيبة من جديد التصانيف فى هذا الباب .

وربما كان من البواعث التى أغرت « الدكتور هيكل » بوضع كتابه أنه وجد « درمنغم » على فضله وجهده لم يوف الموضوع

حقه ، وأن النبيّ لم يُنْصَفْ فى كثير من كتب الأجانب على وجه عام ، بل لقد أثيرت حوله شُبَه تَغُضّ منه لا يُفوِّها حق . فانبرى فى كتابه يدفع تلك الشُّبه ، وينصب الميزان بالقسط لتلك الحياة الفريدة فى عصور التاريخ .

وخليق بالإشادة ماقصد إليه « الدكتور هيكل » من إبراز حياة النبى صلوات الله عليه فى صورة إنسانية محضة ، ليس فيها إغراق فى الوصف ، ولا نبوّ عما هو مألوف من طبائع البشر . وإن فى ذلك لحدّا فاصلا يفرِّقُ بين ما كُتِبَ بالأمس عن النبيّ وما جرى به قلم « الدكتور هيكل » فى ذلك الكتاب . كان التوفيق حليفه فى الملاءمة بين طبائع البشرية وخصائص النبوة ، وما كان أحوج الأمة الإسلامية إلى هذا التصوير الذى يجمع بين الحُسْنَيَيْن فى دقة تحقيق ، وعدالة حكم ، وخلوص من شوائب الأهواء .

ولم يكن عجباً أن يلقى هذا الكتاب ما لقيه من إقبال ، وأن يكون فى ذلك مايغرى « الدكتور هيكل » باقتحام كنوز التراث الإسلامىّ الذى تحجبه الأوراق المصفرّة ، والأساليب القديمة المستعصية ، فاندفع فى مطالعاته مسترسلا فى التمحيص والتخليص ، والتنوير والتبصير .

* * *

وأذّن مؤذّن الحج ، فأحس « الدكتور هيكل » شعوراً غلاّباً يحثّه على اجتلاء معالم الذكريات ومواطن الأحداث التى حلق فيها فكره أثناء تأليفه « حياة محمد » ، فاستجاب لهواتف نفسه ، وانخرط فى غمار الحجيج يؤدى المناسك ، ويتملّى فى نشوة وشغف تلك المعاهدَ المقدسة ، متنسّماً نسيمَ التاريخ الإسلامى فى انبلاج صبحه ، وانبثاق دولته .

وجاشت فى قرارة نفسه روح الفنان ، فما إن آب من حجّته حتى ألقى قلمه يترجم ما انطبع فى سريرته من مشاهد ومشاعر ، فاتسقت له تلك الفصول الرائعة التى ضمها كتابه : « منزل الوحى » تشيع فيها حرارة الوجدان ، ويتجلّى صدق التعبير .

ولا مَعْدَى للناقد أن يَعُدّ هذا الكتاب ختام عهد من الحياة الفكرية « للدكتور هيكل » ، وفاتحة عهد جديد لهذه الحياة واضح المعالم والسمات . فقد انطوى عهد الشباب النزّاع إلى الهدم ، الثوّار على مألوف الأوضاع ، وانفتح عهد الرجل الذى تسوده الطمأنينة والإيمان ، ذلك الذى يرى أن الاستمساك بالمحافظة ، وإذكاء النزعة الدينية ، والهُتاف بأمجاد القديم ، لا يعتاق خُطَى الأمة ، ولا يتخلف بها عن الركب السيّار إلى الأمام . بل لعل

ذلك مما يعين الأمة على أن تستهدى بمقوّمات تستطيع بها شخصيتها مستقلة واضحة التميّز .

مضى « الدكتور هيكل » فى هذه السبيل صادق العزم ، يجاو التاريخ الإسلامى ، محبّباً إلى العقلية الحديثة ، مرضيّاً عنه من المناهج المعتبرة فى البحث والدرس والتحليل ، فأخرج كتابيه : « الصدّيق أبو بكر » و « الفاروق عمر » ومايزال بين يديه برنامج متراحب الجنبات ، موصول الحلقات ، يوغل فيه كما يريد .

وقارىء هذه الترجمات التاريخية يرى « الدكتور هيكل » فيها كأنما يرضى ميله النفسى إلى الحياة السياسية ، فهو فى هذه الحقبة من تاريخ الدولة الإسلامية أمام جملة من الأحداث الفاصلة ، يكثر فيها القواد والزعماء ، وتتناوح الآراء والأهواء ، وتتنازع الفرق والأحزاب . فالمجال بين يديه خصيب للموازنة والمعارضة والترجيح ، ومن ثم يتابع فى هذه الآفاق التاريخية حياته السياسية ، ويمارس تجاربه فى تقليب وجهات النظر ، ودراسة الخطط ، ونقد الحكومات والحكام !

وهيأت الأقدار « للدكتور هيكل » أن يكون رجل دولة : وزيراً فى وزارات شتى ، وزعيم حزب سياسى ، ورئيس مجلس برلمانى ، وقد تقلب فى هذه المناصب ، فما أحالت خلقه ، ولا طفت

على ر..حه ، ولا طوّعته انطام مفروض ، وطابع مرسوم . فهو في جميع تلك المناصب يُظلِلُها بشخصيته فيسبغ عليها مايريد من توجيه وإدكاء ، ولم يستطع واحد من مناصبه التي تسنّمها أن يطويه تحت جناحه ، أو أن يملك قياده .

ذلك لأن « الدكتور هيكل » فلسفة خاصة في ممارسة الزعامة ومزاولة الحكم ، فعقليته الحرة الطليقة لاصبر لها على أن تتقيد ببرنامج تخططه ومنهج تترسّمه ، بل إنها روح تسرى في جوانب الأعمال فتبعث فيها اليقظة ، وتنفي عنها العوائق ، وتيسر لها وسائل الإنجاز .

ولست تراه إلا معنياً بالسياسة العليا لتوجيه المناهج والمشروعات ، واكلا إلى أعوانه وضع الخطط العملية وتنفيذها وَفْقَ هذه السياسة ، متلافياً بألمعيته ولمَّاح فطنته مايكون فيهامن عِوَج .

فهيهات أن تطلب منه عكوفاً على رسم خطة مفصلة ، لها بداية ونهاية ، لأنه رجل يسمو ذكاؤه وطلاقة عقله فوق الحدود والقيود .

كان يوما على دَسْت وزارة المعارف ، فأتى أحمال الأضابير والاضاميم تنتظره ليرى في كل ورقة تحويها رأيَ الوزير ، فأزاغ عنها بصره ، وانتبذ من المكتب مكانا يخلو فيه إلى التفكير والتدبير ، ويحدث جلساته عن مشروعات في التوجيه لسياسة التعليم ، ما أ..مها بمقالاته الرئيسة التي طالما جادبها قلمه ، ولعله حسب نفسه

يومئذ أنه لم يفارق بعدُ مكتبَه في جريدة « السياسة » وأنه مازال « رئيس تحرير » يجب أن يقدم زاد الجريدة في موعد مضروب !

أتيحت « للدكتور هيكل » في مطلعه نشأة كريمة ، واتفقت له في شبيبته صحبة كريمة ، فاكتسب من الخصال الاجتماعية صفوة مهذبة أعانته على أن يكون مثلاً لرجل السياسة الرفيع فيما يأخذ وما يدع .

لقد صاحب « عبد العزيز فهمي » و « لطفي السيد » و « عدلي » و « ثروت » و « محمد محمود » وأضرابهم من رجالات تفرد كل منهم بعبقرية خاصة ، وامتازوا جميعاً بعظمة النفس ومتانة الخُلُق .

أظهر ما يتجلى من أخلاق « الدكتور هيكل » أنه رحب الصدر ، نبيل الخصومة ، لا تفوته الفرصة السانحة ، ولا ييأس من استدراك مافات . فهو مَرِن فيما يواجه به الأحداث ، يتحيّل للوسيلة ، ويتفطن لدواعي التأثير والإقناع .

ومما لا خلاف عليه أن « الدكتور هيكل » يبلغ من « ديمقراطية النفس » ما لا يبلغه غيره من زعماء السياسة ورجالات الدولة . فهو متواضع صادق في تواضعه ، وديع أصيل في وداعته . وربما كانت هذه الخلّة مثارَ النزاع الدائب بينه وبين مطالب الزعامة في سلطانها الغلاّب !

منصور فهمي

إذا أحضرنا في مخيّلتنا عصرَ ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وما كان فيها من وثبة فكرية وتطلع اجتماعيّ ، تجلى لنا على الفور لوحٌ مصوّر تتلاقى فيه صفوة من نبهاء الشباب ، من بينهم : «هيكل» و «طه» و «ضيف» و «عزمى» و «منصور فهمى» .

ويَعجب أن يتلاقى هؤلاء فى إطار واحد ، على الرغم مما بينهم من تفاوت فى النشأة ، واختلاف فى الدراسة ، وتباين فى الأهواء والأهداف .

ولكن ثمة آصرة جمعت بين أولئك ، ووحّدت كلمتهم لإعلاء راية الفكر فى «مصر» .

لقد كانت تسرى بين جنوبهم جميعا روح فَتِيّة تهدف إلى ابتعاث أمة جديدة ناهضة ، وبث حركة فكرية فى شتى مناحى المجتمع المصرىّ من سياسة وثقافة وأدب واقتصاد .

هذه الصفوة الكريمة كأنما كانت عُصبة قوية خرجت إلى مثابة

الحضارة فى «أوربة» تتضلع من زاد العلم والمعرفة، وترتوى من مناهل الحرية، حتى إذا آبت إلى الوطن تسنّى لها أن تستخلص الأمة من موقفها المتخلف، وأن تغذّيها بدم جديد، وأن تُشيع فيها أسباب اليقظة والقوة والتحضّر، فتمضى فى ركب الإنسانية إلى الأمام.

إن هذه البعثة لتعدّ الثانية بعد الرعيل الأول الذى بعثه «محمد على» إلى «أوربة» إبّان حكمه، وإن تأثير هذه ليماثل تأثير تلك، من حيث إشاعة النور فى ربوع الوطن، وتنشئة جيل جديد.

ما إن عاد هؤلاء الشبان — الذين أصبحوا فيما بعد قادة الفكر — حتى أحسسنا نشطة تدبّ فى كيان الأمة، ويقظة تهز أوصالها...

كان لهم فى كل صحيفة مقال، وفى كل حفل خطاب، وفى كل معهد درس، وفى كل اجتماع حديث، وفى كل حركة أو دعوة أو عمل توجيهٌ أو إيحاء أو ساعدٌ أشدّ...

وسرعان ما التف حولهم الناشئة أنصارا وشيعة، يرتشفون من معين فكرهم الدفّاق، فتخلقت مدرسة هى «مدرسة التجديد» هدفها الحرية الفكرية، وإقامة دعائم قوية يعتلى بها صرح

النهضة القومية ، وتسترد بها « مصر » مكانتها فى الصف الأول من الأمم الحيّة . . .

سطع « منصور فهمى » بين هؤلاء نجما لمّاح اللألاء ، وتسامى علما قوى الخفوق تتطلع إليه الأنظار .

رحل إلى « أوربة » لكى يعود أستاذا فى « الجامعة » الناشئة ، ولكن كان أن عاد ليعمل خارج « الجامعة » بعض الوقت ، فإذا به يؤدى فى المحيط الثقافى والصحفى رسالته الجامعية ، رسالة التجديد والتنوير ، ناشط الفكر ، قوى الأثر . . .

إن نظرة خاطفة إلى معالم حياته لتجعلك تلم بعناصر تكوين نفسه ، وما جُبِل عليه من خُلق . . .

تقلبت به الحياة ، ولم يكن له الحظ مطواعا كل حين ، ولكنه أفاد من إخلاف حظه حينا ومن تقلبات حياته المختلفة ، فلم تمر به مرحلة من تلك المراحل عبثا . . .

كان يطلب العلم فى « فرنسة » ، فلم يكن ذلك الطالب الذى يحشو رأسه بالمعلومات ليظفر بالإجازات ، يرى فيها غاية المُنى وفصل الخطاب ، وإنما كان يدرس ليتفهم ويتفطن ، وليمايز بين حضارة الشرق والغرب ، وليوازن بين ما يتلقى من المبادئ والقواعد والآراء وبين واقع الحياة فى دنيا الناس .

لقد جاوزت دراسته نطاق المسموع والمقروء إلى نطاق المشهود والملموس . . .

لقد رمى بنظره وراء الكتب والمحاضرات ، فمضى ينفذ بين أمواج الحياة ، ويسبر أغوار المجتمع .

وأخيرا دارت فلسفته حول محور « الخير والشر » فى طبيعة البشر ، ومدى استطاعة الإنسان أن يستكثر من الخير ويتجنب من الشر بما يستمسك به من أصول الأخلاق .

فى نطاق هذه الفلسفة عاش « منصور فهمى » حياته الثقافية ، وفى ظلها نما و بنى وشاد .

كان « منصور فهمى » ـ وهو طالب فى « باريس » متوفر على الدرس والبحث ـ كاتب سر للمغفور له الملك « فؤاد » وهو يومئذ أمير نزيل « باريس » . فلما قفل الدكتور الشاب إلى « مصر » خاض غمار الحياة ، فمرة هو فى « جمعية الهلال الأحمر » من أركانها ويوما هو فى « مدرسة الحقوق » أستاذ نابه الذكر ، وهو فى اليوم بعد اليوم كاتب فياض القريحة ، أو محاضر سخى البديهة ، أو محدث يتميز حديثه بالطلاوة والحرارة والجد .

ثم استقر به المقام فى « الجامعة » التى أعد لها ، وخلقت لأمثاله ، يصوغون فيها من ناشئة الوطن ذلك الجيل المنشود .

ولا مِرْية أن الفترة التى قضاها فى صحبة الملك « فؤاد » فى « أوربة » وفى « مصر » ، وأن اتصاله بالجماعات والمؤسسات العامة كان له فى نفسه أثر ملحوظ ، فقد بصره ذلك كله بالحياة الاجتماعية ، وأكسبه مرونة السياسة وحنكة الاشتغال بالشئون العامة ، وعلمه كيف يساير النظم العملية ، ولا ينساق فى أودية النظريات تشيع فيها أوهام الخيال .

وليس عجيبا أن نرى « منصور فهمى » بعد أن عرك الحياة فى حقائقها الواقعة ، قد اصطبغت مبادئه ودعواته ونشطاته بصبغة المحافظة والاستمساك بمأثور التقاليد وموروث القوميات .. وقد بلغ فى هذه السبيل مبلغا يسّر لبعض المتطرفين، ممن فتنتهم خلابة الجديد وخطفت أبصارهم أضواء المدنية الحديثة ، أن يأخذوا عليه هذه الروح ، وأن يصفوها بالتزمّت الذى يسوق صاحبه إلى الرجعية وتقديس القديم .

ولكن الحق أن « منصور فهمى » قد اختط لنفسه خطة واضحة فى توجيه الحركة الفكرية .

خطة تأبى الثورة والانتقاض ، وتؤثر الهوادة والرفق فى ملاءمة التطور والانتقال من حال إلى حال ، وتوصى بالتبصر فى ترك ما نترك من القديم ، وفى قبول ما نأخذ من الجديد ..

خطة تنكر التفريط في أيّ مشخص من مشخصاتنا القومية ، وترى في هذه المشخّصات عصمة للأمة من التّميُّع والانزلاق وإهدار الكيان الخاص .

خطة تعتزّ بجوهرة الشرق الغالية : طابعه الروحي ، فلا مناص من إعلاء الروح على دعائم من العقيدة والإيمان ...

درس « منصور فهمي » الفلسفة ومايتصل بها من فروع العلوم والآداب ، ثم شرع يدرِّسها في « الجامعة » ولكنه لم يكن يلقيها دروس معلومات ومقررات ، وإنما كان ينفض في دروسه قلبه وعقله وفكره ، فيبث روحه في أنفس طلابه ، ويثير بين جوانحهم رغبة البحث والتطلع والتأمل ، توصّلا إلى تعرّف القِيَم الإنسانية في حرية وإخلاص ...

ولعل مردّ ذلك إلى أن حياة « منصور فهمي » ونفسيته موصولة أوثق اتصال بما يدرسه من الفلسفة ونواميسها ، ولاسيما الجانب الأخلاقيّ منها .

وعنده أن الفلسفة ليست نظريات وأخيلة ، وإنما هي وسائل تبلغ بالإنسان مراتب من حياة نموذجية رفيعة تدنيه من الخير بمعناه العام ، ومن السعادة في مَثَلها الأعلى ، فهو يحاول أن يطوّع الحياة الواقعية لتلك الفلسفة المقررة ..

وما حياته الشخصية إلا الصراع الأول لتلك المحاولة ، فهو أقرب شبها بمن يكتشف لوناً من الدواء ، لا يطمئن له بال إلا إذا زاول تجربته فى نفسه خاصة . . .

تواصل نشاط « منصور فهمى » عشرات من السنين ، نشاط فكرىّ واجتماعى موفور الثمرات ، ومن عجب أن هذا النشاط فى ذلك الزمن الطويل لم يُسجَّل منه حتى اليوم إلا نشاط ساعات قلائل ، حواه كتابه القديم :

« خطرات نفس »

لك أن تسميه كتاباً ، ولك أن تسميه صوتاً منبعثاً من قرارة النفس ، يبغى أن ينفذ إلى قرارات النفوس . ولك أن تسميه سمراً رفيعاً يتحدث به صاحبه إلى الناس حديثاً عامراً بضروب من التأملات واللفتات فى الحياة والأخلاق .

لهــــذا الكتاب قيمته فيما سجل من آراء وخواطر ، وفيما تستشعره فيه من نبضات قوية تخفق بها الصفحات .

ولكن ثمة ميزة فى هذا الكتاب جديرة أن تكون موضع التقدير من مؤرخى الأدب فى نهوضه الحديث ، تلك هى ميزة التعبير والتصوير . . .

كانت العربية فى فواتح هذا القرن تعانى فوضى المعانى وشرود

الألفاظ ، فكان يعوزها التحديد والتركيز ؛ حتى يؤدى كل لفظ معناه الخاص ، وحتى لاتلتبس المعانى وراء زخارف الألفاظ ، فجاهد النفر الكرام من روّاد الفكر فى تخير الكلمات وضبط دلالاتها على مختلف المعانى .

وإن أسلوب « منصور فهمى » فى « خطرات نفسه » هو مظهر من مظاهر التوفيق فى هذه السبيل ، فهذا الأسلوب يُعد نموذجاً للبيان العربى فى طوره الجديد . . .

وكذلك لم تكن « المقالة » فى مطلع هذا العصر — على وجه عام — إلا مجموعة معلومات واستطرادات واستشهادات فى غير نظام أو تنسيق .

فَتَعَهَّدَ لها أولئك النفر الكرام ، يجعلون كل مقالة محدودة الفكرة ، محدودة المعنى ، واضحة الغرض ، حتى تسنمت تلك الذروة التى نراها فى عهدنا الحاضر .

وإن هذه « المقالة » لتدين « لمنصور فهمى » بأنه فى طليعة من أحلُّوها هذا المقام الكريم . . .

لم تكن « خطرات نفس » بذلك الكتاب الذى تلقفته أيدى القراء ، وإنما هى أجزاء تتوالى وتتلاحق ، يرسلها « منصور فهمى » فى أحاديثه وخطبه يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة .

وإنه لتروعك منه صلابة فى الدفاع عن حق ، أو الانتصار لفضيلة ، صلابة قد تُشعرك الرهبة والهيبة ، ولكن سرعان ماتنكشف لك تلك النفس عن طِيبةٍ وتطامن ودماثة طبع ، حتى لتكاد تأنَسُ منها ببراءة الطفولة .

ولعل هذا سرّ قوة الرجل ، فإنه ليجمع فى إهابه غضبة الليث ووداعة الحَمَل ، ترى منه الجرأة والصلابة والإباء فى المواقف التى تتطلب ذلك منه ، فإذا تجافيتَ به عن تلك المواقف ، تجلى لك جليساً لين العريكة ، إنسان الروح ، شاعرىّ الحديث .

لحياة « منصور فهمى » عنوان جلىّ ، هو : «الصداقة» !

الصداقة التى تحوى ضروب الفضائل الأصيلة الغالية من وفاء مكين ، وإخلاص محض ، ووِداد مُصَفّى .

وإن « منصور فهمى » ليسخو بصداقته ، حتى لتراه : صديق تلميذه ، صديق مرءوسه ، صديق عشيره . . .

إنه لصديق أريحىّ ، فى نَبْع صداقته لكل من يرجوها نصيب !

obeikandl.com

أحمد أمين

أكنت سائرا ضَحوة يوم فى شارع « قصر العينى » فصادفت امرءا يعبر الطريق ، وهو يسارق الخطا ، هيّن المِشية ، خاشع البصر ، يتلفت فى مراقبة وحِذار ، كأنما يستخفى عن أعين الناس؟

لو تاح لك أن تصادف امرءا هذه صفته ، لجرى فى خاطرك على الفور أنك ترى رجلا من أولئك الذين نَنْعتهم بطيبة النفس ، وصفاء النية ، والكفّ عن الضرب فى غمرات الحياة ، ولحدّثتْك نفسُك بأن هذا الرجل يستوحش من الدنيا ، كأنه بين أهليها غريب !

ولعلك لا تلبث أن تجد الرجل قد أثار بين جوانحك عاطفة التوسّم له ، والتعرف به ، فإذا أنتَ متأثّر خُطاه ، تريد استطلاع أمره ، يحدوك إلى ذلك ما تلمح من سَمت غير مألوف .

وما هى إلا أن ترى الرجل قد عرّج على دار «المجمع اللغوى»

obeikandl.com

وأخذ يتسامى على سُلَّمه، متلقياً عن حوله تحايا الاستقبال، وهو يردُّها بأحسنَ منها في وداعة محبَّبة تجلوها ابتسامة خفيرة؛ وإنك لتجده يسخو بهذه التحية لمستقبليه من الكبراء وغير الكبراء بدرجةٍ سواء.

ويستهويك ما تشهَدُ من أمر الرجل، فتتابعه في مسيره، حتى يُسْلمَك إلى قاعة مديدة تغَصُّ بمنضدة مبسوطة، قد ترصَّصَتْ عليها كتل من الأسفار، ما أشبهها بجماجم أثرية ضخام!

وثَمَّةَ ترى صاحبك قد أوغل في القاعة، حتى إذا بلغ منها مكاناً قصيًّا، اتخذ مجلسه في سكينة وركون، كأنه يخشى أن يشعُر بمَقْدَمِه أحد، وما أسرع أن يَمُدَّ يمينه إلى سِفرٍ من هذه الأسفار، فيقلب من صفحاته لحظات، ثم يمسك عنه، وقد تكمش في مجلسه وأطرق، حتى لتَقول أغْفَى!

وتعمُر جوانب القاعة بالقُصَّاد، ويكتمل الجمع، فيتجاذب الرفاق أطراف النقاش، وتدور بينهم معركة الرأى حامية الوطيس، وصاحبك على حاله، لا تنبِس له شفة، ولا يطرِف له جفن، فتحسب أنه ساهٍ عما حوله، لا يجرى شىء منه بباله، فتتركه وشأنه، ويشغَلُك التحاوُرُ والجدال. وفيما أنت كذلك إذ يداعب سمعَك صوت يختلج مترفّقا يحاول أن يجد له طريقا فى ملتطم ذلك الزحام،

فإذا تبينتَ القائلَ عرفت أنه صاحبك المنطوى على غفوته ، فتأذَنُ له وأنت عليه مشفق ، فيروعك أنه قد استبطن الصميمَ من البحث ، وأنه يجمع لك فى فقرات ما تشعَّث من أطراف الرأى ، ولا يُحتِّم أن ينتهى بك إلى حكم تأنَس إليه النفوس ، وتضيق به فسحة الخلاف !

وتظل مسحور السمع بهذه المساجلات الطريفة التى تصطرع فيها عقول ، وتَستطيع بَدَاته ، غافلا عن استشارة تلك الساعة العتيقة التى تبرز على حائط القاعة ، وما أنتَ لو استشرتها بمستفيدٍ ضبطاً لوقتك ، فإنما هى ساعة عجمية ، كأنما أُعْلِيَتْ فى مكانها لتستهزىء بدورة الفَلك ، وتسخَر من حساب الزمن !

ولتَجِدَنَّ المناقشات قد تناوَحتْ يمنة ويسرة ، ولربما اشتدَّ اشتباكها واحتدَّ ، وأنت معقودُ العين بصاحبك ، تقفُو مشاركاته فيما يتراءى من وجهات النظر ، فإذا بشخصيته تتوضح لك شيئاً بعد شىء ، وكأنك تجتلى كتابا شائقا جِدَّ شائق ، كلما قلبتَ من صفحاته ازددتَ به من تعلق ، وطمحتَ منه إلى جديد !

إنه فى شتى مناقشاته ومناقلاته لا يفارق سَمْتَه ، فهو أبدا هادىء القَسِمات، رفيق الإشارة ، أَرْيَحِىُّ الروح ، يتميز بذلك الصوت المختلج الحيّ ... ولكنك تستبين من وراء ذلك كله

إيمانا منه بفكرته ، وثباتا فى تعزيزها ، ولباقة فى الدعوة إليها .

وإذا بهذا الرجل الذى رأيتَه أولَ ما رأيتَه متكمشا مستوحشا ، فحسبتَه ممن لا حظّ لهم فى معترك الحياة — قد تفتّق إهابه عن زعامة بصيرة قادرة تنتهج لها طريقا لا عِوَج فيه .

وتَعْجَب لصاحبك ، وقد استحرّ نقاشه ، وجعل يطارح رفاقه مصطلحات العلم فى صلابتها وخشونتها ، إذ تراه وقد دسّ بين هذه الصخور والجنادل — فى الفينة بعد الفينة — مُلْحَةً فَكِهة ، أو مُزْحَة طريفة ، لا تلبث أن تُشِيع فى جوّ المجلس نَسْمَة من الطرب والمِراح . فتعلم أن صاحبك على وثاقة علمه ، وأصالة وقاره ، يجيد ما يجيده « ابن البلد » من خفة وظَرف وإيناس ، فهو يحسن أن يستخرج من اللفظة الجافية « لابن سِيدَه » ، أو القاعدة المعقّدة « لسيبَوَيْهِ » نكتةً ضاحكة ، أو دُعابة لطيفة ، تحيل تلك الجنادل والصخور رياضا حالية بالنَّضْرة والازدهار ...

ولا يكاد ينتهى بك المجلس الأول فى صحبة الرجل ، حتى يغريك ما استبان لك من أمره بأن تطلب المزيد .

إذا جاز لنا أن نوجز وصف « أحمد أمين » فى كلمة ، قلنا : إنه « بَنَّاء » !

ولقد ملكتْ هواه نزعةُ البِناء والتشييد ، وأولع بها أيَّما

وَلُوع ، فوقف عليها فكره وجهده ، تارة يزاول ويمارس ، وطورا يشرف ويَرْعى ، وحينا يحضّ ويدعو .

وخير ما يمتاز به هذا « البَنَّاء » فى نزعته ، أنه اجتماعى عصرىّ ، وأنه واقعىّ عملىّ ، إذا عَلَنَتْ له فكرة رسمها فى ذهنه أدق رسم ، وجعل لها خطة محكمة ، وقدّر لها كل ما عساه يكون من أقدار ولا يكاد يمدّ يده ليضع الحجر الأساسىّ لهذه الفكرة ، حتى يكون قد استوثق من أنه مرغاية الاستيثاق ، وأحاطه بما يكفل له الرسوخ والشموخ ، فإذا البنيان تعلو دعائمه ، وإذا هو حصن للقرائح والعقول .

وعبقرية هذا « البناء » العظيم تتمثل فى أنه يجعل لنزعته طابعا من التجديد ، لا مغالاة فيه ولا انسلاخ ، فهو إذا شيد التمس لأساس بنيانه عتادا من كنوز الشرق وأمجاده ، ولكنه يقيم على هـــذا الأساس طرازا تتوافر له كل مزايا التحضّر العصرى والعُمْران الحديث

وهذا « البَنَّاء » العظيم يرمى دائما من وراء سعيه إلى هدف مقصود ، ذلك أن له رسالة إصلاحية واضحة ، يبتغى بها تجديد العقلية العربية ، وإمدادَها بما يعينها على ملاحقة الزمان فى سيره الحثيث .

حول محور هذه الرسالة الإصلاحية يدور فكر الرجل ، ولا يمل أن يدور . وكأن هذا المحور مغزل يستمد منه الخيوط لينسج منها أعماله ومساعيه ونفحات قلمه .

اقرأ كتابه «فجر الإسلام» وصنويه : «الضحى» و«الظهر» تجده يؤرخ الحياة العقلية للمسلمين فى مواضى الحقب ، ولكنك تستطيع أن تلمح خلف مظاهر البحث والدرس لوامع تلك الروح الأصيلة ، روح الدعوة إلى الإصلاح ، والتوجيه إليه ، إذ هو يجلو لك منهاج الفكر العربى فى تطوره وسموه ، ويميط الغبار عن معالمه ، ويريك الضوء من مصابيحه !

ولم يكن عجبا أن يشغف الرجل بدراسة القادة الأعلام الذين هم طليعة النهضة فى الشرق الجديد ، وإن كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ليكشف لك أن الرجل يعنى أكبر ما يعنى فى تأريخ أولئك القادة الأعلام وتصوير حياتهم بإبراز ما كان لهم من جهود فى سبيل النهوض بالعقلية الشرقية ، وفى نشر رسالة التجديد بها

وإليك كتابه « فيض الخاطر » ، لكأنه « فلم » سينمائى تتوالى فيه الصور والمشاهد ، « فلم » تنطبع عليه استجابة ذلك « البناء » الداعى إلى الإصلاح لكل ما يلابسه فى الحياة والمجتمع . وإنها لصور شائقة ، ومشاهد رائعة ، تأنس فيها قبسة من الفن فى

العرض والتعبير ، حتى لتدهش إذ تتجلى لك — فى شخصية هذا العالم الدارس — صِبْغَةُ الأديب الفنّان.

وأنتَ لو تصفحتَ مختلف الجوانب من شخصية «أحمد أمين» لطالعتْ عينُكَ صورةَ قاضٍ تتوضح فيه نزعة القضاء بأوفى مافيها من خلال الدقة والوزن والنظام ، وأكرم مافيها من خصال النزاهة والعدالة ويقظة الضمير .

إنه قاضٍ فى خاصّة شأنه مع نفسه ، قاضٍ فى حديث مجلسه ، قاضٍ فى الجامعة أستاذاً وعلى مكتبه رئيسَ عمل ، قاضٍ فى معاملاته مع الناس بين قريب وبعيد ، قاضٍ فيما يَجْرِى به قلمه من مباحث ودراسات وخواطر . . .

وقد عرفت الأقدار نزعته القضائية فى بواكيرها ، حين شبَّ شباُبه ، فأرادت له أن يكون أحدَ قضاة الشرع ، يفصل فيما هنالك من خصومة ونزاع . . . ولكنه لم يمكث فى مَنْصِب القضاء طويلا ، فترك ذلك الميدان المحدود ، ليكون قاضياً طليقا لا تقف به قيود المهنة عند غاية ، ولبث فى دنياه ، على اختلاف مناصبه ، وتنوُّع مجالات نشاطه ، تملكه نزعة القضاء ، وتهيمن على فكره ما وسعها أن تهيمن .

وهذه النزعة القضائية قد وَسَمت حياة الرجل فى مناحيها

العقلية والاجتماعية بِسِمَةِ الاعتدال . . . فهو معتدل أبدا فى تقديراته وأحكامه ، معتدل أبدا فى علاقاته ووشائجه ، لا يجمح فى القسوة ، ولا يتراخى فى اللِّين . يحب حين يُحِب هَوْنا مّا ، ويُبغِض إذا أَبغَضَ هَوْنا مّا . أنأى ما يكون عن التعصُّب والتحزّب ، آنفَ ما يكون للسَّرَف والتطرّف ، أميلَ ما يكون إلى الموادعة والحُسْنَى !

والعَجَب العاجب فى شخصية « أحمد أمين » أن نشأته قد اكتنفتْها كلُّ دواعى التحفظ ، من معتقدات راسخة ، وتقاليد صارمة ، وتعاليم جامدة . . . ولكن فكره توهّج والتمع وَسْط ذلك كله ، كما يتلألأ الجوهر النقىّ ، وخرج يلتمس الطلاقةَ فى الأفُق الرحيب . . . فإذا التمسنا الآن حريةَ الفكر بين القادة الأعلام ، ألفيناه مَنَارَ الطريق .

obeikandl.com

العقاد والمازني

هما اثنان :

أحدهما سامق الهامة ، باسق القامة ، عريض المنكبين ، متدفق اليدين ، تلتمع عيناه حزما واعتزاما ، ويقتلع خطاه في مسيره اقتلاعا .

وبجانبه شخص متطامن ، ضئيل الظل ، قريبٌ بعضُه من بعض ، تملأ منه عينيك في لحظة ، ينقل خطاه كما يتواثب القَطا ، ويقلب فيما حوله نظرة يقظى تسبر الغور وتخترق الحُجُب .

فإذا راعك مرآهما جنبا إلى جنب في الطريق ، فأقْسِمْ غير حانث أنك ترى « العقاد » و « المازني » . . . ترى ذينك الصاحبين اللذين تَرَافَقَا في دنيا الأدب وعالم الثقافة منذ عهد بعيد .

ولقد أَلِفَ الناس أن يتمثلوهما معـــا ، حتى إنهم إذا رأوا أحدهما وحده ، أعدُّوا أنفسهم لاستقبال صاحبه دون قصد ..

وذلك ما كان من أمري معهما ، حين أزمعت أن أُجْري القلم

obeikandi.com

فى الحديث عن واحد منهما ، فقد وثبت إلى ذهنى على الفور صورة الآخر لا تريمه ، ولم تكن لى مَنْجاة عن جمعهما فى مقال.

وليس ذلك عجبا فى شأن « العقاد » و « المازنى » ، فقد جلت لنا صحائف التاريخ مشاهدَ من الأعلام مَثْنى مَثْنى . . .

وربما أثار الدهشة أن ثمة فوارق بين كل اثنين جمع بينهما التاريخ ، وأن هذه الفوارق كانت خليقة أن تباعد بينهما كل المباعدة . ولكن الحق أن تلك الفوارق هى علة الاتصال ، وباعثة الاقتران ، إذ هى التى يتكامل بها الرفيقان ، فيؤلفان بهذا التكامل صورة تامة تعبر عن جانب كبير من حياة العصر الذى يعيشان فيه .

و « العقاد » و « المازنى » فى تزاملهما يتقاربان جدّ التقارب ، كما يتباعدان جدّ التباعد ، حتى لقد ينتهج أحدهما مسلكا عكسَ ما ينتهج صاحبه ، بيد أنهما على الرغم من كل ذلك صِنْوان أو توأمان لا تتقطّع بينهما الأسباب .

تلازَما عصرَ الشباب ، حتى أدى بهما المطاف إلى أوج الرجولة ، وبلغا عصر المشيب ، فلبث كلاهما على حاله ، لم يلحقه تبديل ولا تحويل . . . « العقاد » فى شبابه شيخ نشيط ، وفى كهولته شابّ وقور . أما « المازنى » فهو فى شبابه وكهولته معا ذلك اللّعوب الشّغُوب ، صاحب النّكات والمشاكسات ،

الساخر حتى من نفسه فى غير مبالاة . . .

فى حياتهما أَوْجُهُ شَبَهٍ عجائب :

مدرّسان يزاولان التعليم حينا من الدهر .

قارئان يَمْتَحَان من نَبْع واحد ، سواء فى الأدب العربى أو فى الأدب الإنجليزىّ .

شاعران يَخُطان للشعر نهجا طريفا غير مألوف .

ناقدان يثوران على القديم ، ويدعوان إلى الجديد .

كاتبان يَشْرَعان أوضاع « المقالة » العصرية فى أدبنا الحديث .

صحفيان يناضلان بالقلم عن مذاهب السياسة ومبادىء الأحزاب .

ورأس المشابهة بينهما هو نزعة التجديد ، فهما أبرز دعاة العصر إلى بعث الروح الأدبى على نحو يساير النهضات الأدبية فى العالم المتحضّر ، وإليهما يرجع كبير من الفضل فى أداء رسالة الفكر الغربىّ إلى الشرق فى هذه الحقبة .

ولم تكن دعوتهما إلى التجديد هدما لمأثور الأدب وقديم الثقافة ، بل كانت إمدادا الماضى بالحاضر ، ووصلا للقديم بالجديد ، وتزويدا للحياة الفكرية بدم قوىّ نقىّ . . . وذلك لأنهما كانا فى رحيب دراساتهما ، وواسع تحصيلهما ، مثلا طيبا للتمكن من أدب العربية ، والتبحّر فى ثقافة الشرق ، فقدّرا هـــذا الأدب حق

قدره ، وعرفا لتلك الثقافة حقها من التقويم .

* * *

لست أغلو فى القول بأن المرض الذى ألمّ « بالعقاد » فى مفتتح شبابه كان له الأثر الأعظم فى تكوين حياته وإبراز طابعه ، فقد اضطره المرض أن يحيا حياة عزلة واعتكاف ، فانفسح المجال لميوله الأدبية كى تشبع نهمها إلى القراءة والدرس ، فى ذلك المَعْزِل . ومن ثم أقبل « العقاد » يعبّ من فنون البيان ومناحى الثقافة ما ساغ له أن يَعُبّ .

وكان من أثر الاحتجاز فى صومعة القراءة والدرس أن تمكنت فى خصائص « العقاد » مَلَكة التأمل فى الحقائق ، والتعمق فى الأفكار ، فاكتسبت فصوله تلك الصِّبغة ، من أسلوب رصين ، وتفكير دقيق ، وإحاطة شاملة .

وهذا المرض كان من أثره أيضا أن استقر فى قلب « العقاد » حب الحياة ، والتشبث بها ، والكفاح فى سبيلها ، فإنه لما واتاه الظفر فى عراك المرض ازداد تعلقا بالحياة ، ورغبة فى التمتع بأطايبها ، فكرّمَ نفسه ونعّمها ما وسعه التكريم والتنعيم . وكان من عُقْبَى ذلك الظفر أنه أورثه زهوا وعزة ، وثقة بالنفس ، ورهافة شعور بالكرامة ، وأذكى بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة

والإصرار، فتجلّى فى حياته وفى إنتاجه هذا اللون من القوة والصّراع وصلابة القناة .

وأنت كذلك ترى الصرامة والجد والتوقر طابعاً جليّاً فى أدب « العقاد » : شعره وترسُّله . الجملة عنده بنيان مرصوص ، والكلمة فى مقاله لها موقعها الذى لا موقع غيره يكفل لها الجلال والخطر ، فهو بحق إمام من أئمة العارفين بمقامات الكلام .

وقد لزمتْ « العقاد » عادة المطالعة ، حتى أصبحت له ديدنا لا يملك منه خلاصاً ، وعلى مرّ الأيام تأصّل ذلك فيه ، فصارت حياته حياة مكتبية محضة ، وقد أبى على نفسه أن يشوبها بما يخرجه عن تلك الوحدة ، فعاش فرْداً فى صومعة القرائح والعقول !

تيسر « للعقاد » بذلك أن يعتصر زبدة الفكر من خير منابعه ، وأن يتزود بها ويتمثلها كما يتمثل الإنسان الغذاء ، فإذا هو دم يجرى فى الشرايين ليهب القوة والسلامة . فلا غرو أن تتّسم فصوله بسمات الدراسة والتمحيص وسعة الاطلاع .

وإذا كان لكل كاتب عيب يتوضح فى آثاره ، فالعيب الجلى فى كتب « العقاد » أنها لا تصلح أن تُزْجِى وقت القارىء قبيل النوم حين يتكىء على وِساده ، حتى إن كتابه « سارة » — وهو قصة — يتعاصى على هذا الغرض ، لما فيه من تحليل عميق للنفس البشرية

يثير اليقظة ويشرّدُ عن العيون ترْنيقَ المنام ، فإن انخدع قارىء بكتب « العقاد » فاتخذ أحدها للقراءة قبيل نومه لم يلبث أن يطيب له الأرق ، وأن يستبدل بمتعة الرقاد متعة الاستغراق فى عباب الفكر .

وأجمعُ القول فى أدب « العقاد » أنه صورة صادقة لحياته وخُلقه ، فهو فيما يكتب كأنما ينقل لنا مشاهد صحيحة من حياته العقلية والنفسية فى تلك الصومعة التى أولاها كل تقديس .

* * *

أما صنوه « المازنى » فقد طبعت نفسه على دُعابة ومرَح ، وقد تملَّى حياة اجتماعية حقة ، فتزوج وأعْقبَ ، واختلط بالمجتمع ، وشارك الناس ... فكان من ذلك كله مِزاج طريف تميّز به أدبه ، فبدا قوىّ التملّح ، جميل التظرّف ، مشبوب النكتة ، وإنه ليبلغ فى ذلك حدّ العربدة ، يتخذ ألواناً من المكايد ، ويمارس فنوناً من السخرية ، فلا يتمالك قارئه أن يجاريه فى تلك الخفة ، فيفترّ ثغره عن تضاحك موصول .

و « المازنى » كصنوه « العقاد » يصدق تعبيره عن شخصيته وحياته كل الصدق ، فإنك تجد فى أسلوبه سهولة المأخذ ، وفطرية المظهر ، وشعْبيّة الوصف ، فيخيّل إليك أنك لستَ ببالغ منه بعيدَ غرض ، ولكنك إذ تتابع القراءة تحدُوَّا بطلاوة العبارة

وسحر الحديث ، تتكشف لك دخائل من جوهر الحياة ، وحقائق من قلب المجتمع ، بُسِطَتْ فى هذا المعرض الأنيق الطريف ، لا وعورةَ ولا تعقيدَ ولا تفلسف !

ولغة « المازنى » تتفرّد بين لغات الكتاب بأنها تطوّع البيان العربىّ الأصيل لمطالب التعبير العصرىّ ، فى منحىً كأنه حديث مجلس ، وفكاهةُ سامر ؛ وبأنها كذلك تطوّع اللهجة العامية الصميمة للتعبير الفصيح بين طوايا المقال ، ففيما يجرى به قلمه تنساب الكلمة الجزلة المختارة والكلمة العامية الطريفة : فى نسق بديع ، تحسبه بادىء بدء هيناً ميسوراً ، وهو عند الممارسة تَقْصُر دونه هِمَمُ الأقلام !

والقصة فى أدب « المازنى » عنصر له خطره ، ذلك لأنه يجلو فى « مقاله » تجارب الحياة ، وأوضاع المجتمع ، وشئون الناس ، عارضاً ذلك ألواحاً تتراءى فيها الشخصيات والمشاهد والأحداث .. ومن ثمّ كان طبيعياً أن يكون « المازنى » — إلى جانب براعته فى فن « المقالة » — أخا جُهُودٍ موفّقة فى القصص الفنىّ الخالص ، وأن يكون قصصه مستودَعاً يَزْخَر بتقلبات الحياة ، وما يدور فى المجتمع من أسباب .

* * *

obeikandl.com

و « المازنى » و « العقاد » كلاهما بليغ الأثر فى توجيه الثقافة ، وتجديد الأدب ، وإمداد الصحافة بمختلف الألوان . . .

وهما الآن يلتقيان فى المجمع اللغوىّ — مجمع الخالدين — تسجيلا لهذا التكامل بين شخصيّتين لكل منهما منحى وأسلوب ، فلقد ضمهما المجمع « شاطراً ومشطوراً بينهما طازَج » من الأدب الرفيع !

obeikandi.com